الوضع السياسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط زمن الإمام الهواري

The political situation in the western basin of the Mediterranean at the time of Imam Al-Hawari

بلحاج محمد*

جامعة وهران 1 (الجزائر)،

ملخص:

تهدف المقالة تسليط الضوء على الوضع السياسي في الضفتين الشمالية والجنوبية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط نهاية القرن 14 م وبداية القرن 15، وهو الوضع الذي ألقى بضلاله على مدينة وهران كحاضرة من حواضر الجزائر. في هذه المرحلة بدأت بوادر الصراع بين شبه جزيرة إيبيريا ودول المغرب العربي، وتميزت هاتين الجهتين في هذه المرحلة بتوجه الممالك الإيبيرية بالوحدة السياسية ومركزية القرار، في حين انتقلت دول المغرب العربي (الزيانية والمرينية والحفصية) من الحضارة إلى البداوة أي من مركزية الدولة إلى الفوضى السياسية حيث حلت سلطة الأعيان وشيوخ الزوايا والقبائل محل السلطة السياسية. من خلال هذه الزاوية نسعى إلى إبراز دور الإمام الهواري ضمن النسيج الاجتماعي والإطار الثقافي والوضع السياسي، ومدى تأثيره على محيطه في ظل الغياب المتفاوت للسلطة المركزية.

الكلمات المفتاحية: الهواري ؛ التصوف ؛ الوضع السياسي؛ الحواضر، وهران

Abstract:

The article aims to shed light on the political situation in the northern and southern banks of the western basin of the Mediterranean at the end of the 14th century AD and the beginning of the 15th century, a

*المؤلف المرسل

situation that cast its delusion on the city of Oran as a metropolis in Algeria. In this stage, the signs of conflict between the Iberian Peninsula and the countries of the Maghreb began, and these two sides were distinguished at this stage by the direction of the Iberian kingdoms to political unity and centralization of decision, while the Maghreb countries (Zayani, Marinid and Hafsid) moved from civilization to nomadism, i.e. from the centrality of the state to political chaos. Where the authority of the notables and sheikhs of the zawiya and tribes replaced political power. Through this angle, we seek to highlight the role of Imam al-Hawari within the social fabric, cultural framework, and political situation, and the extent of his influence on his surroundings in light of the uneven absence of the central authority.

مقدمة:

تهدف المقالة تسليط الضوء على الوضع السياسي في الضفتين الشمالية والجنوبية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط نهاية القرن 14 م وبداية القرن 15، وهو الوضع الذي ألقى بضلاله على مدينة وهران كحاضرة من حواضر الجزائر.

في هذه المرحلة بدأت بوادر الصراع بين شبه جزيرة إيبيريا ودول المغرب العربي، وتميزت هاتين الجهتين في هذه المرحلة بتوجه الممالك الإيبيرية بالوحدة السياسية ومركزية القرار، في حين انتقلت دول المغرب العربي (الزيانية والمرينية والحفصية) من الحضارة إلى البداوة أي من مركزية الدولة إلى الفوضى السياسية حيث حلت سلطة الأعيان وشيوخ الزوايا والقبائل محل السلطة السياسية.

من خلال هذه الزاوية نسعى إلى إبراز دور الإمام الهواري ضمن النسيج الاجتماعي والإطار الثقافي والوضع السياسي، ومدى تأثيره على محيطه في ظل الغياب المتفاوت للسلطة المركزية.

الوضع السياسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط زمن سيدي الهواري

نهدف من خلال هذه المداخلة تقديم تشخيص في إطار دراسة وجيزة ومقارنة بين ضفتي الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لنبرز المظاهر الأولى لاختلال التوازن السياسي والحضاري الذي بدأت تتبلور

معالمه بين الضفة الشمالية- ونخص بالذكر هنا شبه جزيرة أيبيريا- من جهة، والضفة الجنوبية ممثلة في بلاد العرب الإسلامي من جهة أخرى.

1- بالنسبة للضفة الشمالية:

بدأت الإمارات الأيبيرية إبان القرن الخامس عشر تتجه نحو الوحدة السياسية ومركزية السلطة، هذه المركزية تجسدت في بعض المظاهر التي كان من أهمها دفع وتسيير الضريبة التي أصبحت تعبر عن مبدأين أساسيين هما: الولاء للسلطة المركزية من ناحية، وتوفير الأموال اللازمة للتسيير الدولة في مختلف شؤونها من ناحية أخرى.

سمح التحصيل المالي بتمويل الجانب العسكري المتعلق –أساسا- بمواجهة الإمارات الإسلامية المتبقية في الأندلس، بحيث كان هذا المجهود المتنامي في مواجهة المسلمين وغيرهم (اليهود) مفعم و مطعَّم بنزعة دينية صليبية زادت من حماس الإمارات المسيحية، خاصة وأن هذه الإمارات كانت قد فرضت على مواطنيها دفع ضريبة أخرى سميت بالضريبة الصليبية التي خصصت للمجهود الحربي المنخرط ضمن مطاردة المسلمين بعد إسقاط إماراتهم الواحدة تلوى الأخرى، والتي كان أخرها إمارة غرناطة 1492م .

ومن أهم مظاهر الوحدة السياسية التي ترجمتها وحدة الجبهة الداخلية بروز مملكة البرتغال من جهة، وإماراتي قشتالة وأراغون اللتان ستشكلان مستقبلا مملكة اسبانيا..

وكان من الثمار الأولى لهذا المجهود –إقليميا- الغزو البرتغالي لبعض الحواضر الساحلية للمغرب العربي مثل سبتة ومليلية وحجر باديس والمرسى الكبير ووهران في بداية القرن الخامس عشر ميلادي وهو زمن سيدي الهواري المعني بهذه الدراسة.

أما من الناحية الحضارية عرفت الضفة الشمالية الغربية من البحر الابيض المتوسط نهضة علمية تدل على أخذ الإمارات الأيبيرية بزمام المبادرة حيث استفادت من تراكمات الإشعاع الحضاري للمسلمين في الأندلس.

وكانت هذه النهضة بمثابة الثمار التي قطفتها هذه الإمارات المسيحية مما ساهم في تفوقها الحضاري في هذه الفترة وتجسد ذلك في ظهور الجيوش النظامية وتطور الاسلحة مثل البارود والمسدس والمدفعية، بالإضافة إلى تطور سفن الشراع واستعمال الابرة المغناطيسية والاسترلاب وهو ما مكن ايبيريا من ان تكون أول الدول الاستعمارية في الصر الحديث

ولا يمكن تناسي بعض الامارات الاخرى في هذه المرحلة وفي هذه الجهة في البحر المتوسط مثل إمارة جنوه التي كانت من أهم الحواضر المتطورة اقتصاديا وعسكريا بدليل تمكن هؤلاء احتلال مدينة جيجل خلال القرن 13 ميلادي.

أما بالنسبة للمغرب العربي:

صار المغرب العربي عكس الاتجاه الاول حيث أصبح يعيش حالة من التفكك وعدم الاستقرار السياسي فانتقلت دوله الثلاث (المرينيون والزيانيون والحفصيون) من حالة الحضارة إلى حالة البداوة، ففضلا عن الصراعات بين هذه الامارات من اجل تزعم بلدان المغرب العربي واعادته إلى زمن دولة الموحدين على الأقل، فان الاقطاب المتعددة الصفات بدأت تظهر وتطفو على الساحة كدليل على هذا التفكك. فالضريبة مثلا أصبحت تذهب إلى جيوب السلاطين والأمراء دون أن تعرف مصاريف الخزينة وهذا ما جعل شيوخ القبائل عن دفعها.

ونركز على الضريبة نضرا لدورها السياسي كدليل على الولاء والخضوع من جهة، ونضرا لدورها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي من جهة أخرى بحيث يتجلى النفاق العمومي حول الاهتمام بقضايا التعليم والتقاضي وتنظيم الأسواق وتقديم مختلف الخدمات العمومية.

والملاحظ في هذه المرحلة الاخيرة من التاريخ الوسيط ان غياب الدولة ومركزية السلطة بدى واضحا فلم تكن الدول تسير الا على مستوى العواصم (فاس تلمسان القيروان) أما ما تبقى فكان السكان في الكثير من الاحوال متروكون في استقلالية تعبر عن التمرد غير المعلن او المعلن أما في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فكان السكان يتصرفون دون رقابة الدولة التي لم تلعب دورها في هذا الإطار.

آثار هذا الوضع على بعض المصادر في المغرب العربي

فتح تفكك دول المغرب العربي وعدم استقرارها السياسي المجال أمام ظهور أعيان وأقطاب وشيوخ زوايا وزعماء قبائل ليحلو محل الدولة المركزية أما بإظهار مظاهر العصيان والتصرف باستقلالية أو من خلا لجوء السكان إلى هذه الأقطاب اما بحثا عن الحماية وتحقيق الأمن وإما اللجوء إليهم في بعض الجوانب المتعلقة بالتعليم مثلا أو الإفتاء أو حل المنازعات. وكان من بين هؤلاء سيدي محمد بن عمر الهواري الذي استقر في مدينة وهران في هذه المرحلة وفي خضم هذا الجو السياسي والحضاري.

وكان لجوء الإمام الهواري إلى حاضرة وهران دليل على أن هذه الحاضرة كانت تتميز بشبه استقلال ذاتي عن السلطة الزيانية المركزية. فقد اختار سيد الهواري الاستقرار نهائيا بوهران بعد هجرته من مدينة تلمسان حتى ينأى عن ضغط السلطة الزيانية.

ويمكن تشبيه مدينة وهران بجزائر بني مزغنة حيث تجلى دور الاسرة الثعالبية وقطبها سيدي عبد الرحمان الذي كانت اسرته تسير المدينة على شكل بلدية مستقلة، للعلم مدينتي وهران والجزائر محل تجاذب بين الدول المغاربية الثلاث فمرة تخضع للسلطة المرينية ومرة اخرى للسلطة الزيانية ومرة اخرى للسلطة الحفصية.

ونفس المر ينطبق على جهات اخرى من بلاد المغرب ففي جهته الشرقية انقسمت الدولة الحفصية إلى شرقية وغربية الامر الذي سهل على الجنويين الاحتلال مدينة جيجل لمدة طويلة وفتح المجال فيما بعد ل الزاوية الشابية التي لم تكن هيكلا دينيا ف حسب بل كانت أيضا قطبا سياسيا منافسا للدولة وغير بعيد عن مدينة الجزائر كانت امارة جبل كوكو في منطقة القبائل.

ولا يشد المغرب الاقصى عن هذه الحالة فكان جزء كبير منها خاصة في جهته الجنوبية يسمى بأرض السيبة والتي تعني صراحة الأرض السائبة أو الغير خاضعة تماما، كما ظهرة في نفس الوقت تقريبا أقطاب سياسية أخرى مثل جمهوريي العياشي وإمارة تطوان.